محمد علوي المالكي

المستشرقون بين الإنصاف والعصبيّة

١٤٠٢ ـ ١٩٨٢

مطابع سحر
٢٣١٤٢٠٥
٢٣١٤١٤٨
٢٣١٤٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذا بحث مختصر عن المستشرقين .

لم أقصد به استيعاب هذا الموضوع تاريخاً ودراسة ، وإنما أردت أن أبين حقيقة مهمة تتعلق بتقييم دراسات المستشرقين من حيث الإنصاف والعصبية ، ومدى تأثرهم بذلك ، واعتراف بعضهم بهذا ، وانتقاد بعضهم لبعض .

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

هذا ، وبالله التوفيق والهداية إلى أقوم طريق ؟

محمد علوى المالكى

اهتم الفكر الإسلامى فى هذا القرن بالدراسات الاستشراقية فظهر لكثير من الباحثين والمفكرين المسلمين دراسات وكتابات متعددة ومختلفة عنهم بين المدح والذم ، والرد والترجمة ، ونحن لا يهمنا — الآن — تقييم ونقد هذه الكتابات — ولكن الذى أود الإشارة إليه هو — هذه الحركة البسيطة والبطيئة فى الوسط العلمى الإسلامى — هذه الحركة وإن جاءت متأخرة ، ومتأخرة جداً عن موعدها الذى كان يجب أن تظهر فيه ، إلا أنها تبشر بشىء — لا يدعو إلى الاطمئنان فحسب — ولكن يدعو إلى أن الأمل — فى إيقاظ الشعور الإسلامى وبعث النهضة الفكرية السليمة والرجوع إلى الثقافة الإسلامية الأصيلة المنبعثة من ذاتية الأمة ، والتحرر من التبعية الفكرية التى أذابت الشخصية المسلمة ـ سيعطى ثماره ونتائجه إذا اكتنفه العمل الجاد الصادق المخلص، وأن الرجاء فى ذلك ليس كاذبا إذا كانت هناك القيادة الأمينة التى تغار على الإسلام كما تغار على كرامتها السياسية .

وهذه الحركة الإسلامية — سواء تقدمت أو تأخرت — هى فى الحقيقة نتيجة طبيعية لاهتمام المستشرقين الكبير بالدراسات

الإسلامية ، فخدماتهم وجهودهم التى بذلوها ـ لا تنكر ـ وذلك واقع مشهود وظاهرة لاخلاف بين أهل الفكر فى ذلك ولاشك ـ نعم هناك مسائل هامة اختلفت فيها الآراء وتنوعت فيها المذاهب نظراً لاختلاف مقاصد المستشرقين من جانب ، واختلاف تأثر المفكرين بالمستشرقين من جانب آخر . فمنها مثلا تاريخ هذه الدراسات الاستشراقية وأنواعها والموضوعات التى تناولتها ، وأهم من ذلك كله القيمة العلمية الصحيحة لها ، وموقف المسلم منها .

أما عن تاريخ هذه الدراسات فإن القرن الثالث عشر الميلادى هو الزمن المشهود الذى قامت فيه حركة الاستشراق الواسعة ، وهو مبدأ تاريخ هذا الاتجاه الغربى الجديد بمعناه الشامل .

أنواع دراساتهم :

وأما أنواعها فإنه يمكن إرجاعها إلى نوعين :

الأول : خدمة التراث الإسلامى بالكشف والجمع والفهرسة والنشر والتحقيق والترجمة إلى مختلف اللغات .

الثانى : التصنيف والتأليف الاستقلالى. فى تاريخ هذا التراث ومنشئه وتطوره وموازنته بغيره .

وكان ميدان نشر هذين النوعين من الدراسات هو : المعاهد والمطابع والمجلات والمؤتمرات ودوائر المعارف وهذا الذى ذكرته يؤيده واقع دراساتهم وآثارهم، وأما الموضوعات التى تناولتها هذه الدراسات فإنها قد بدأت بدراسة اللغة العربية والإسلام ، ثم توسعت إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته ، ولكن أهم ما اعتنوا به هو الدراسات الخاصة بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية ، ولا زالوا يولونه من العناية والاهتمام حتى اليوم .

والمنهج العام الذى يسير عليه أغلبهم فى دراساتهم يتضمن عادة:

١ — فصلا مختصراً عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ — » « عن العقيدة .

٣ — » « عن الشريعة .

٤ — » « عن الخلافة .

٥ — » « عن الفرق الإسلامية .

٦ — » « عن الحياة العقلية .

وهذه الخطة موجودة فى كثير من الكتب المؤلفة باللغة

الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، كما تنطق بذلك المجلة الآسيوية ودائرة المعارف الإسلامية وغير هذين من الكتب المفردة[١] .

الظروف والملابسات المحيطة بدراسات المستشرقين :

وقبل أن ننتقل إلى تحليل القيمة العلمية لهذه الدراسات أحب أن أذكر لكم بعض الظروف والملابسات التى كانت مع قيامها وما كان يحمله العقل الأوروبى عن الإسلام والحضارة الإسلامية. وما انطوت عليه النفسية الأوروبية من انطباعات وتأثرات نحو الشرق عموما .

الأول : أن هؤلاء الباحثين الذين يتكلمون ويكتبون عن الإسلام — كدين يتبعه الملايين من البشر — هم لا يدينون به . وهذه الحقيقة لا شك فيها طبعاً . ولذلك ليس غريباً أن يدفعهم اختلاف الدين هذا إلى التعصب الشديد والحملة الشعواء على الإسلام وتحين الفرصة بعد الأخرى لبث الشبه والدعاوى بلا تثبت ولا تحقق . وقد أشار إليه (ليوبولد بايس — محمد أسد —) فى

(١) المستشرقون والإسلام للبان والاستشراق للسباعى .

كتابه الإسلام على مفترق الطرق إذ قال[1] ، لا تجد موقف الأوروبى موقف كره فى غير مبالاة فحسب، كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد، وهذا الكره ليس عقلياً فقط ، ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية .

وليس غريباً أن يدفعهم هذا الاختلاف أيضاً إلى الشعور بالعداء والبغضاء والحقد على الإسلام كدين فاتح زاحف حاكم وقد صرح بهذا المستشرق (بيكر) قال : إن هناك عداء من النصرانيين للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سداً منيعاً فى وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها ، وصرح بهذا كذلك الأستاذ (درمانجهايم) فقال : حينما اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحيين ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين وأساء كل منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين[2]

(١) الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد .

(٢) المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم . حياة محمد : لاميل درمانجهايم.

ويقول (جيب) ومن معه فى كتابهم — وجهة الإسلام أو مسير الإسلام — لقد حدث من قبل فى حياة محمد عليه السلام أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين ، وظلت كذلك حتى هذا اليوم، ولهذا ظل العالم المسيحى — لا المسيحية — عدو الإسلام الألد[1] .

وليس غريباً أن يدفعهم — هذا الاختلاف — إلى تصور نظريات فاسدة خاطئة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى نبوته وعصمته، وعن القرآن كوحى معجز منزل من الله سبحانه وتعالى، فيتخطبون فى تفسير مظاهر الوحى التى كان يراها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ويفسرونها بالصراع والتخيل ، وبالمرض النفسى .

الثانى : أن الحملات الصليبية كان لها الدور الفعال فى تشويه وجه الإسلام الحقيقى ، وإبراز صورة عنه ممسوخة ناقصة مختلفة حملتها إلى أوروبا وبثتها فى العقل الأوروبى — كما يقول محمد أسد — أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكن كان قبل كل شىء ، وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافياً — لقد نشأ

---

(١) وجهة الإسلام ص ١٨ تأليف جيب وجماعة من المستشرقين .

تسميم العقل الأوربى عما شوهته قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا[١] .

الثالث : عدم تمييزهم المصادر الموثوق بها من غيرها فى نقولهم، إذ يعتبر المستشرقون أن دراسة الإسلام تؤخذ من القرآن والسنة وتفكير المسلمين فى مدارسهم المتنوعة ومذاهبهم المختلفة[٢] .

فالفقه الإسلامى، وآراء المتكلمين، ودواوين الأدب كالأغانى وكتب التاريخ كالطبرى، وأقوال العلماء أرباب المذاهب الأخرى كغلاة الصوفية ومتطرفى السلفية وغيرهم، كل هذه مصادر ومراجع تؤخذ منها الدراسات الإسلامية، ويعتمد عليها فى نقل النصوص والأخبار ، فمنطق اعتبارهم أن تفكير المسلمين ومذاهبهم تساوى فى الحجية : القرآن والسنة الصحيحة، وهذا التقدير لمصادر الإسلام جناية وجريمة فى حق هذه المصادر، فى الوقت الذى يعتبر المسلمون فيه أخبار القرآن يقينية الدلالة، مقطوعا بصحتها ، يجب أخذها.

---

(١) بتصرف واختصار من الفكر الإسلامى للدكتور البهى ٢١١، والإسلام على مفترق الطرق .

(٢) نفس المرجع ٢١٤ .

— وأخبار كتب الأدب ظنية لا يعتمد عليها — ويجب التوقف فيها — يعتبر المستشرقون أنهما فى درجة واحدة .

الرابع : أن الغرب كان يميل دائماً إلى رد أخطاء ومواطن الضعف عند المسلمين إلى تعاليم ونفوذ الإسلام ، بدلا من ردها إلى جهل المسلمين بالقيم الإسلامية وإهمالهم لها[١] .

وكأنهم يعتبرون المجتمع الإسلامى دليلا صادقا على الإسلام ، وأن المسلم فى كل عصر بانتسابه إلى الإسلام على أى وجه حجة على الإسلام ، وأن سلوكه فى حياته وتأديته لعبادته تمثل تعاليم الإسلام فى الأخلاق والعبادة .

ومعلوم أننا إذا جعلنا المجتمع الإسلامى مقياسا للإسلام كانت النتيجة سيئة ، لحالة المجتمع التى لا ترضى .

الخامس : فقدان عنصر الروحية الغيبية فى الطبيعة الأوروبية وخاصة فى العصور الحديثة، بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص . ويظهر أثر فقدان هذا العنصر أمام

---

(١) مقدمة تفسير الإسلام لظفر الله خان لكتاب تفسير الإسلام للدكتور لورافاجليرى .

تفسير الحوادث التاريخية ومحاولة الاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين أشتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان، فلا تكون هناك استجابة كاملة صادقة أمام هذه الحوادث وتفسيرها ودراستها، لأنه يفقد عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيراً لها مخطئاً أو ناقصاً.

وقد أشار سيد قطب إلى هذا فقال[1]: تتسم البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية بظاهرة الاستجابة الناقصة، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة.

السادس: اهتمام الفاتيكان - أكبر المراكز الدينية وأكثرها اهتماما بالاستشراق ونشره، واهتمام رجال الدين الذين يؤلفون الطبقة الأكثر تنوراً فى أوربا.

---

(١) فى التاريخ: فكرة ومنهاج ٣٨.

اهتمام هؤلاء جميعاً بإرساء نهضة الكنيسة على أساس من التراث الإنسانى ، تمثل الثقافة العربية الإسلامية جزءاً أساسياً منه واهتمام الكنيسة بإعداد جماعة من المفكرين يستطيعون مقارعة فقهاء المسلمين ومناظرتهم ومجادلتهم، واهتمام الكنيسة أيضاً بأكبر واجب من واجباتها، وهو: الدعوة إلى المسيحية والتبشير بها بين المسلمين بأقرب وأسهل الطرق، ألا وهى الاستشراق، والذى يؤيد هذا الزعم هو: أن الكثيرين من الذين احترفوا الاستشراق وبرزوا فى ميادينه بدأوا حياتهم العلمية بدراسة اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية[١] .

منصفون ومتعصبون :

فى وسط هذا الجو والفكرة والميدان المشوب بهذه الملابسات المختلفة: قامت هذه الدراسات عن الإسلام ، فهل سلمت من تأثير هذه العوامل المختلفة القوية الداخلية والخارجية ؟ لذلك تنبه كثير من المفكرين والكتاب المسلمين إلى هذه الحقيقة ، فكان من

(١) باختصار وتصرف من محاضرة نبيه عاقل : المستشرقون وبعض قضايا التاريخ .

نتائج هـذه اليقظة أن قسموا المستشرقين إلى صنفين : متعصبين ومتجردين ، أو منصفين .

فالمتعصبون وهم — الغالبية — أكثرهم من الرهبان والقسس والمبشرين الذين اشتغلوا بالاستشراق .

والمنصفون هؤلاء — أقبلوا على الاستشراق — كما يقال عنهم — بدافع من حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها ، وحاولوا بكل جهـد أن يتحرروا فى بحوثهم العلمية من أثر العواطف الدينية .

انتقاد بعضهم بعضاً :

وهذه اليقظة الفكرية شعر بها أيضاً بعض علماء المستشرقين أنفسهم، وأحسوا بأن دراسات إخوانهم التى انبعثت من وسط ذلك الجو، كانت متأثرة كل التأثر بما فيه، فظهرت منهم انحرافات علمية تدعو إلى الفضيحة وتجر إلى النقد، يقول الكونت هنري دى كاستر كاسترى أحد وزراء فرنسا وأحـد حكام الجزائر أيام الاستعمار الفرنسى[1]: ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين، وليس هو نبي

(١) الإسلام : كاسترى ، ترجمة فتحى زغلول باشا ص ١٥ — الإسلام فى نظر الغرب ص ٢٩ .

سلاب كما يقول موسيو سايوس، ثم أخذ يرد على الموسيو كينان الذى زعم أن عمومية الدين ليست من طبيعته ، وإنما حصلت بعد تطور وتأثر بالزمن والأمم ، وقال : فلا يغضبن موسيو كينان إذا حذفت تقسيمه الإسلام إلى أول ولا حق، وقلت فيه كلمة كما قال فى كتابه : إنه دين عمومى .

ويقول الأستاذ (ديرمانجهايم) معلقا على نتائج الحروب التى قامت بين المسيحية والإسلام: وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بمساوىء واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته، على أثر ذلك هب الكتاب والشعراء من الغربيين ، وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إياها إلا تهماً باطلة ، بل متناقضة[1] .

وانتقد المستر — توماس كارليل — صاحب كتاب الأبطال وعبادة البطولة . الكاتب واشنجتون إيرفنج فى قوله — فى السيرة النبوية — إن الجبر بالسيف من قواعد العقيدة الإسلامية ، ويقول

---

(١) حياة محمد ـ له ـ والمستشرقين لزكاريا .

إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم .

وقال أيضاً : لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى تلك الاتهامات التى وجهت إلى الإسلام وإلى نبيه ، واجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة .

ويقول الأستاذ (منتجمرى وات) جد الباحثون منذ القرن الثانى عشر فى تعديل الصورة المشوهة التى تولدت فى أوربا عن الإسلام، وعلى رغم الجهد العلمى الذى بذل فى هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافى للحقيقة التى أحدثتها كتابات القرون المتوسطة فى أوربا لا زالت قائمة . فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها[1] .

ويقول الأستاذ (جيب) فى كلامه عن بحوث المستشرقين : لقد قامت فى صفوفهم فى السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول

---

(١) المستشرقون للبابى .

النفوذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الدينى المسلمين بدل السطحية الفاضحة التى اصطبغت بها دراساتهم السابقة[١].

ويقول الأستاذ (نورمان دانيل) على رغم المحاولات الجدية المخلصة التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجرداً تاما كما يتوهمون، وهؤلاء المستشرقون الذين أدركوا هذه اليقظة الفكرية كلها يعترفون بالانحراف العلمى الظاهر الذى وقع فيه كثير من زملائهم ومغالطاتهم السافرة، إلا أن بعضهم يصرح بالإنكار عليهم فى جرأة ووضوح، وبعضهم يحاول الاعتذار عنهم بقدر الإمكان، لأن ساحتهم فى الحقيقة واحدة.

وقد ذكر المرحوم الدكتور مصطفى السباعى أنه اجتمع بالبروفسور (روبنسون) فى انكلترا وبين له أخطاء (جولدزيهر) بالأدلة، فكان مما أجاب به: لاشك أن المستشرقين فى هذا العصر أكثر اطلاعا على المصادر الإسلامية من (جولدزيهر) نظرا لما طبع وعرف من مؤلفات إسلامية كانت غير معلومة فى عصره[٢].

---

(١) نفس المصدر

(٢) الاستشراق والمستشرقون

وتحديد موقف المستشرقين بهذا التصنيف[1] هو مذهب العقلاء من مفكرى المسلمين الذين يقدرون الأمور قدرها ويزنونها بميزان البصيرة، ويضعونها مواضعها.

ولم يصبح فى ميدان الفكر مجال أو قبول لأولئك المغرورين الذين أفرطوا فى خلع ثوب الثقة على هذه الدراسات عموما بدون تصنيف، وأسرفوا فى حسن الظن فنقلوا عنها ما نقلوه وكأنهم يروون عن مصدر متواتر محسوس، لا يتطرق إليه الشك أو الظن.

الواجب علينا :

بل إن الواجب علينا أن نذهب إلى أبعد من هذا، وذلك بأن نأخذ بالحذر والتحفظ والحيطة، حتى بالنسبة لهذه الآثار التى اشتهرت بالإنصاف والاعتدال، وأقول التى اشتهرت بالإنصاف، لأن التى عرفت بالتعصب والانحراف لم يصبح لها وزن حتى عند إخوانهم من المنصفين ومادام أن الدين الإسلامى قد وضع قواعد مضبوطة وموازين معلومة ومقاييس خاصة لقبول الأخبار ورواتها فى علم مصطلح الحديث الذى يعتبر أصح ماعرف من قواعد علمية

(١) السنة ومكانتها فى التشريع للسباعى.

للرواية والإخبار، بل إنه قد نهج على منهج علماء الحديث علماء السلف فى الميادين العلمية كالتاريخ والفقة والتفسير واللغة والأدب وغيرها، فكانت المؤلفات العلمية فى العصور الأولى مسندة بالسند المتصل جيلا بعد جيل، وهذه ميزة لا توجد فى مؤلفات العلماء من الأمم الأخرى، حتى ولا فى كتبهم المقدسة[1]. فلماذا لا نستفيد منها فى هذا الميدان؟

معايير النقد عند المسلمين :

لقد رسم العلماء فى هذا الفن معايير نقد الأخبار وطرقها ومقاييس قبولها، فاشترطوا فى طرقها — وهى التى يعبر عنها بالأسانيد — العدالة فى الراوى والضبط والحفظ والسماع المتصل بكل راو

واشترطوا فى الإخبار :

عدم ركة اللفظ والأسلوب بحيث لا يقوله بليغ .

عدم المخالفة لبدهيات العقول بحيث لا يمكن تأويله .

عدم المخالفة للقواعد العامة فى الحكم والأخلاق .

(١) السنة للسباعى .

عدم المخالفة لأصول العقيدة من صفات الله ورسوله .

عدم المخالفة للقرآن أو محكم السنة أو المجمع عليه أو المعلوم من الدين بالضرورة .

عدم المخالفة للحقائق التاريخية المعروفة عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ألا يكون داعياً إلى رذيلة تتبرأ منها الشرائع .

ألا يشتمل على سخافات يصان عنها العقلاء .

ألا يكون ناشئاً عن باعث نفسي[1] .

هذا هو المنهج السليم والطريق القويم لاعتبار الأخبار وهذه هي الأسس الرصينة المحكمة لنقدها وتميز صحيحها من سقيمها وهي أسس سليمة لا يستطيع المنصف أن يكابر في قوتها وعمقها وكفايتها .

ومعاملة هذه الدراسات بمثل هذه المقاييس ، ووزنها بهذه المعايير والأسس ، باستثناء العدالة طبعا ، أولى ، بل واجب متعين والسبب في ذلك أنه وإن كان السائد أن إقبال أصحابها على

(١) السنة للسباعي .